الفصل الحادى عشر

اللعب

مقدمة :

من المعروف أن الحيوانات التى هى أقدر على التعلم تكون كذلك أقدر على اللعب فى حين أن تلك التى لا تهتدى إلا بغرائزها الموروثة فإنها لا تعرف اللعب. فالسمك الصغير يسلك نفس المسلك الذى يسلكه السمك الكبير من أول الأمر ، فى حين أن القطة أو القرد أو الجرو فهى حيوانات تلعب وفى أثناء لعبها تكتسب خبرات ، وكلما ازداد لعبها كلما زادت خبراتها ، وكلما زادت الخبرات كلما زاد التعلم .

والحيوانات تلعب فى فترة طفولتها ، بل إن بعض الحيوانات يستمر لعبها حتى بعد البلوغ ، كالقردة مثلا ، وهى أقرب الحيوانات إلينا . وكلما تدرج الحيوان فى الرقى كلما طالت فترة لعبه ، وكلما تدرج الحيوان فى الرقى كلما طالت مدة طفولته . فالطفولة الطويلة فيها لعب كثير ، أى فيها كسب لكثير من الخبرات . فاللعب إذن وسيلة لنمو الحيوان القابل للتعلم . وإذا كان الإنسان أرقى الحيوانات فمعنى ذلك أن فترة طفولته أطول فترة ومدة لعبه أطول مدة ،

وأمكننا بذلك أن نعرف قيمة اللعب بالنسبة له ، طالما أن اللعب وسيلة لنمو الحيوان القابل للتعلم .

فاللعب إذن هو عمل الطفل، وهو الطريق الذى يسلكه حتى يصل إلى النمو والرقى ، فالطفل الذى يلعب هو الطفل الذى يتمتع با لصحة العقلية ، وهو الطفل الذى ينمو نمواً طبيعياً صحيحاً . أما الطفل الذى لا يلعب ، الطفل الخامل المنزوى الدائم السكون والركود ، فلا شك أن به شذوذاً أو أن به عيباً نفسياً ، وهو بذلك يحيد عن طريق النمو الصحيح ، ولا بد من معرفة موطن العلة منذ البداية حتى يعالج ؛ وتقويم الغصن المعوج وهو غصن غض أسهل بكثير من تقويمه بعد أن تكبر الشجرة .

والطفل يلعب منذ السنة الأولى ، يلعب بالأصوات التى يخرجها من فمه ، وقد عرفنا المناغاة العشوائية ثم التجريبية ، ومن لعبه هذا يتعلم ، فهو يتمرن على استعمال الكلمات التى سينطقها فيما بعد والتى تتشكل من هذه الحروف المختلطة المتزاحمة التى تلتف برداء المناغاة . وبعد أن يتخطى السنة الأولى ويقف على قدميه ويتحرك نراه يقفز ويجرى ويتسلق ، وهذه ومثيلاتها حركات تفيد عضلات ساقيه وذراعيه وأصابعه . ثم هو يعمد إلى أثاث المنزل فيعبث به ، وإلى الأشياء المرتبة المنظمة فيخلط بعضها ببعض ، وإلى صنابير المياه فيجعل الماء يتدفق منها وإلى الأوانى فيحطمها والصناديق يستخرج

ما فيها والكتب فيمزقها ، وهو هنا كالباحث المنقب يتحرق شوقاً للمعرفة وكسب المعلومات والإستطلاع ، ثم إنه يتجه فى لعبه إتجاهاً آخر ، فهو يمتص عناصر السلطة المحيطة به ثم يسقطها ، فيلعب تمثلا ساعى البريد أو الأب أو الأم أو بائع الصحف ، وهذا من شأنه أن يسهل عليه الاندماج فى العالم الاجتماعى .

هذا هو الطفل البشرى ، يجب أن يلعب ، ويجب أن يشجع على اللعب لا أن يكبت ويردع ، فلعبه دليل رقيه وسموه بل إن اللعب كما تقول سوزان أيزاكس « هو موضع فخر الطفل الانسانى وميراثه البشرى ؛ فهو يمثل روح المخاطرة البشرية والحكمة التى كسبتها الأجيال الانسانيـــة بشق الأنفس ، وهو الوسيلة التى بها يكتسب الطفل حظه من المعرفة والمهارة ، فيضيف بذلك جديداً إلى التراث البشرى » .

العمل واللعب :

اللعب نشاط يقوم به الفرد من أجل اللعب نفسه وليس له أى قيمة نفعية ، ولهذا فإن هناك اختلافاً واضحاً بين العمل واللعب ، فنحن فى العمل نروم الوصول إلى غاية أو هدف ونسعى وراء نهاية نتخذ العمل سلماً لهـا . فالغاية فى اللعب غاية مقصودة فى ذاتها لا نبغى من ورائها نتيجة خارجية . لـكن لا يجب أن نظن أن الفعالية فى اللعب وقتية بريئة من كل نظرة بعيدة وكل سعى وراء

هدف . وعند ما تكون الفعالية غاية فى ذاتها ، أى عند ما يكون فعل اللحظة الواحدة كاملا بذاته ، فإنه يستحيل شيئاً مادياً بحتاً فاقد المعنى . فإما أن يكون الفرد إذ ذاك قائما بحركات عمياء قد تكون تقليدية بحتة ، أو يكون فى حالة هياج منهك لعقله وأعصابه . وكل من هاتين النتيجتين تظهر كما يقول جون ديوى John Dewey (١) فى بعض أنواع الألعاب فى رياض الأطفال حيث تكون فكرة اللعب بالغة من الرمزية حدا لا يشعر به إلا الكبار ، فإذا لم ينجح الأطفال فى فهم اللعبة على وجه خاص بهم ، يختلف عن فكرة اللعبة الأصلية ، تراهم يمضون فيها كمن نوم تنويما مغناطيسياً فذهل ، ويستجيبون لمؤثرات مهيجة مباشرة .

ويكاد يجمع جمهرة علماء النفس والتربية على أنه من المستحيل وجود اختلاف نفسى بين العمل واللعب ، وفى هذا يقول برادلى F. H. Bradley أن الشكل الذى يكتسبه أى مظهر من مظاهر نشاطنا يرجع إلى وجود عاملين يدخلان فى هذه المظاهر بنسب متفاوتة وهما : (ا) الضغط الخارجى . (ب) التلقائية Spontaneity .

فالطفل عند ما يلعب له مطلق الحرية فى اختيار أنواع اللعب التى يريدها ، والمكان الذى يلعب فيه ، والأشخاص الذين يلعب معهم ، والوقت الذى يود اللعب فيه ، والمدة التى يستغرقها فى اللعب .

---

(١) John Dewey : Democracy and Education.

ولكن الطفل ليس حرا تماماً فى ذلك فإن قدرته المحدودة تضطره إلى اللعب مع الصغار، وأوامر والديه تحتم عليه أحياناً اختيار المكان وأنواع اللعب والمدة التى يستغرقها فى اللعب ، ثم هو إذا لعب فلا بد له من الخضوع لقانون اللعبة ، وخضوعه لقوانين اللعبة يتم بدافع اختيارى فهو يستطيع الخروج من اللعبة وبذلك يتحرر من الخضوع لهذه القوانين . وإذا قام الطفل (بلعب) دور الأب فهو هنا مقيد بحركات وكلمات معينة لا يجب أن يحيد عنها وإلا فشل فى دوره هذا . فالطفل لا يهمه المكان الذى يلعب فيه ولا نوع اللعبة ولا الوقت ، بل كل ما يهمه وكل ما يلزمه هو أن يلعب ، ولا بد له من أن يلعب (١) .

إذن فنشاط الطفل يصبح لعباً لو أمكنه أن يُقبل عليه متى أراد وأن يتخلى عنه متى أحس بالرغبة فى ذلك .

واللعب له غاية ، أى أن له فكرة موجهة تسدد الأعمال المتتالية وخطوات اللعب المتتابعة ، فالطفل الذى يلعب لا يقتصر على مجرد (عمل أشياء) بل إنه يحاول أن ينجز شيئاً ويحصل على نتيجة ، فاللاعب يترقب شيئاً وهذا الترقب يستحثه على المضى فى اللعب . غير أن النتيجة التى يترقبها هى فعل تال وليست تغييراً خاصاً فى الأشياء ، ومن ثم ففى اللعب حرية ومرونة . أما إذا كان المطلوب

(١) Nunn, T.P. : Education, its Data and First Principles.

نتيجة خارجية معينة ، فعلى الفرد حينئذ أن يضعها نصب عينيه بشيء من الثبات يزداد كلما كانت النتيجة المنتظرة معقدة. فمثلا طفل يمسك قطعة من الصلصال كى يشكل منها حصانا يلعب به ، فهو هنا أمامه هدف وغاية يسعى اليها وكل أعماله ستتجه إليها . أما إذا أراد أن يلعب دور الفارس ، فالحرية هنا أكبر ومجال الاختيار أوسع والتغيير أكثر. فقد يمسك العصا ويضعها بين فخذية ويجرى أو يمتطى صهوة (كرسى) على أنه حصان ، والعبرة هنا بما يدخله وما يوحيه إليه خياله من العناصر الجديدة .

ويتحول اللعب إلى عمل متى تدبرنا نتائج معينة بعيدة بعداً يفرض على المرء بذل المجهود المتصل لأجل تحقيقها . والعمل كاللعب يدل على وجود فعالية ذات غرض ، ولا يختلف عنه فى أن الفعالية تخضع لنتيجة خارجية ، بل فى أن هناك نتيجة نفكر فيها وتتطلب عملا طويل الأمد وانتباها متواصلا وذكاء أعظم فى اختيار الوسائل وتكييفها . ففى اللعب يتوافر عنصر التلقائية ، فى حين أن العمل نجد فيه أن التلقائية يعوقها ضغط العوامل الخارجية ، ولكن لو أتيح للتلقائية أن تتغلغل فى ثنايا العمل ، لوجدنا حينئذ أن جميع مظاهر النشاط البشرى تصطبغ بروح اللعب . وكما يقول شاند Shand : إن روح اللعب تسرى فيها

(١) Quoted by Sir Percy Nunn from : Shand : The Foundations of Character.

عناصر السرور ، فمن ناحية تميل عناصر السرور إلى أن تعبر عن نفسها بالحركات الجسمية أو بشكل محاكاة مظاهر نشاط الكبار التى يقبل عليها الأطفال ، ومن ناحية أخرى إن كل عمل من الأعمال يصبح لعبا لذلك الشخص الذى كسب فيه مهارة تمكنه من القيام بهذا العمل بسهولة وبسيطرة يكون من نتائجها أن يشعر صاحبها بروح السرور .

لعب الطفل ولعب الراشد :

نخرج مما سبق أن الطفل يجب أن يلعب ، واللعب عند الطفل له قيمة حيوية عظيمة ، فهو إعداد للحياة ، ولا شىء أقسى على نفس الطفل من ردعه عن اللعب وحرمانه منه ، وهذا مشاهد ملحوظ بيننا ، فالأم دائبة الشكوى من أن طفلها يعود اليها بعد اللعب متربا قذراً ، ولا علاج لها لمنع القذارة إلا بمنع اللعب ، وهذا خطأ فاحش وظلم جائر يقع على الطفل . والأم تهلع إذا وجدت طفلها دائماً قذراً وهى تريده نظيفا ، والنظافة مقبولة لاشك فى ذلك، كما أن القذارة مكروهة لاجدال فى ذلك ، ولكن بالنسبة للشخص الراشد الكبير الذى يفرق بين كلمتى « نظافة » و « قذارة » . ثم الأم تجزع وترتاع إذا أمعن الطفل فى اللعب وأمعنت القذارة فى صبغ يديه ووجهه وشعره وملابسه وهى ترى

القذر سيعتاد القذارة وستمشى القذارة معه فى مراحل نموه كأنما هو قد عقد حلفا معها ضد النظافة ، وهـذا افتراء على الطفل المسكين ، فالقذارة قد عرفت كلا منا (أو معظمنا) فى طفولته فهل نحن الآن حلفاء لها ؟ وهل للقذارة فى الطفولة أثر على النظافة بعد اكتمال النمو ؟ مثل هذه الأم كمن ترى طفلها عند ما ينطق يناغى فتصيح مولولة تظن أنه سيظل فى مرحلة المناغاة متى كبر ، فهى تريده أن ينطق كلمات وجملا !

ولن يدرك الطفل أن النظافة شىء ذى قيمة إلا بعد أن يبلغ الثانية عشرة من عمره ، أما قبل ذلك فهو لا يرى فى هذه الأوامر المتلاحقة المتتابعة إلا حواجز تحول بينه وبين ما يشتهى .

والطفل فى لعبه قد يجور على ممتلكات الغير ويعبث بها ، وهو لا يظن أن فى ذلك ضررا أو عيبا ، بل يراه عملا مشروعا ، وهذا ما لا نقبله نحن الكبار ، فنهرع اليه نضربه ونؤنبه ، والأولى بنا أن نبين له ، منتهزين هذه الفرصة ، معنى بسيطاً للحقوق والواجبات. وهذه حالة طفلة سرقت زهرة من حديقة مجاورة لمنزلها[1] ، فإن مارى البالغة من العمر أربع سنوات ونصف سنة قد (سطت) على حديقة جارة ، وقطعت زهرة ، وأن أمها قد ضربتها لهذه الفعلة المشينة ، فبكت الطفلة بكاء مراً لا يكاد ينقطع ، وبعد أن عرف

---

(١) هذه الحالة أقتبست من مجلة The Psychologist عدد فبراير ١٩٤٩

المحلل النفسى (وهو كاتب المقال) أن سبب بكاء الطفلة راجع إلى سوء فهم الكبار للموقف ، تلطف مع الصغيرة حتى اطمأنت اليه ودارت بينهما المحادثة الآتية :

— هل عندك لُعب فى المنزل ؟

فكفت عن البكاء وأجابت — « نعم » .

— أى نوع من اللعب ؟. فسردت عليـــه أنواع لعبها ومن بينها دمى .

— كم دمية عندك ؟ — ثلاث .

— ثلاث ؟ يا لك من بنت محظوظة ، وما اسمها ؟

— إيزابلا وجوللى وفيليس

— أيها تحبين أكثر ؟ — فيليس .

— حسناً ، لنفرض الآن أن السيدة التى أخذت من حديقتها الزهرة جاءت إلى منزلك وأخذت فيليس وخرجت ، فماذا يكون شعورك ؟

فأطرقت هنيهة تفكر ثم رفعت رأسها قائلة — «لا أحب منها أن تفعل ذلك » .

— « حسناً ، هذا بالضبط ما تشعر به السيدة نحو زهورها .. ولهذا لا يجب عليك أن تأخذى زهور السيدة » .

فأجابت الطفلة بتأكيد وفهم — «نعم» .

وقد أوصى المحلل النفسى الأم بأن تشبع رغبة الطفلة فى حبها للزهور كأن تشترى بعض (الزهريات) أو إصيصاً به شجيرات وزهور .

ويتكلم علماء النفس عن اللعب على أنه ميل فطرى عام ، أى أنه موجود فى أفراد الجنس كله ، فالطفل يلعب بفطرته ، ويظل اللعب حتى بعد أن يبلغ الشخص سنى الرشد ، بل ويلعب الطاعنون فى السن ، على أنه يكاد يكون لكل مرحلة من العمر أنواع خاصة من اللعب تتناسب مع القدرة الجسمية وخفة الحركة مثلا . غير أننا عند ما نتكلم عن لعب الكبار لا نستعمل كلمة «لعب» وحدها ولكننا نتحدث عن «تمضية الوقت» وعن «الاستجمام والاسترواح». وكلمتا «الاستجمام والاسترواح» أجدى فى المعنى لأنهما تشيران إلى إعادة بناء الفرد ، أو ما يقرب من خلقه خلقا جديداً ، بنوع من النشاط لذيذ مريح ، وهما يشيران كذلك إلى طرد السآمة والملل وبعث روح جديدة للنشاط يستعد به الشخص لاستئناف العمل .

ويختلف الحال بالنسبة للأطفال ، فإن اللعب عمل الطفل وهو ضرورى لتنشئته ونموه ، وهو تدريب وإعداد للحياة ، وكلما أجهد الطفل نفسه فى لعبه ، كلما كان أكثر صلاحية للحياة المستقبلة .

ولعب الطفل يكون معظمه فى الغالب عضلياً ، فهو يجرى ويقفز ويرمى الكرة ويلتقطها ويركب دراجته ، ولكنه إلى جانب ذلك

يصنع قارباً من الورق أو حصاناً من الصلصال، حتى إذا ما كبر الأطفال ازدادت حاجتهم إلى اللعب العقلى . على أنه من الواجب أن تكون لدى الطفل ألعاب عقلية إلى جانب الألعاب العضلية ، وكذلك الحال بالنسبة للكبار . كما أن الطفل الذى لا يستطيع الجرى والحركة لمرضه مثلا ، يستطيع أن يعمل بعقله الشىء الكثير . لكن فى حالته الصحية ينبغى أن يحتفظ بالتوازن بين ما يسمى لعباً عضلياً ولعباً ذهنياً ، أو لعب الجسم و لعب العقل .

لماذا يلعب الكائن الحى ؟

أجاب علماء النفس وعلماء التربيـــة عن هذا السؤال بعدة نظريات فسرت طبيعة اللعب منها :

(ا) نظرية الطاقة الزائدة : وترى أن اللعب موجود عند الطفل وعند الكبير ، ولكن لعب الكبير أقل من لعب الطفل ، لأن الطفل معنى به من والديه ، فعنده لذلك طاقة زائدة وتخرج هذه الطاقة فى صورة لعب .

(ب) نظرية الاستجمام : وترى أن وظيفة اللعب الأساسية هى إراحة العضلات والأعصاب من عناء العمل ، وترى أن أوجه النشاط الضرورية للحياة مثيرة للتعب والإنهاك ، ولذلك فإن اللعب ضرورى ، ففيه تترك للمراكز المرهقة فرصة للراحة .

(ح) النظرية الإعدادية : الغرض من اللعب هو تمرين الطفل

او الحيوان وإعداده لحياته الجديدة المستقبلة . ولذلك هيئت للحيوانات الراقية مدة طفولة طويلة تمارس فيها هذه الألعاب .

(د) النظرية التلخيصية : تنظر إلى اللعب على أنه عادات وروح الماضى تلح فى الحاضر ، ولذلك فإننا نعيد نشاط أجدادنا ونعيد أعمالهم ، والطفل يلخص فى لعبه (بشكل غير جدى) تاريخ نشاط الإنسانية .

(هـ) النظرية التنفيسية : توجد بعض الغرائز والانفعالات التى لا تسمح النظم الاجتماعية لها بالأشباع ، فيلجأ الشخص إلى اللعب ينفس فيه عن هذه الغرائز والانفعالات .

هذه فكرة موجزة لنظريات اللعب . ولا يمكننا أن نأخذ بنظرية واحدة ونقبلها على انها المفسر الوحيد للعب الكائن الحى .

اللعب الإيهامى :

يرى الأستاذ السير برسى نن Nunn[1] أنه يمكن مقارنة وظيفة اللعب الإيهامى بما يحدث من صراع فى عقل مريض يقع نهباً (للمركبات) المتضاربة ، إذ أنه حين تتخلى مجموعة من الأفكار ، أو مركب من المركبات ، عن مكانها تحل فيه غيرها فتصبح مركزاً للانتباه . فمثلا : رجل يعتقد أنه نابليون ومع ذلك فهو يتجاهل ما يتطلبه الموقف منه من جلال وهيبة ويجوب الشوارع منادياً على بضاعته

(١) Nunn : Education, its Data and First Principles.

التى يحملها فوق رأسه . وهذا ما يحدث بالضبط مع الطفل ، فهو فى لعبه يستطيع أن يتجاهل الحقائق التى تتحدى صدق أفكاره ، فهذه العصا التى كان يتوكأ عليها والده منذ لحظات قد أمست حصاناً يمتطى صهوته ، وهذا القلم الذى كان يخط به منذ دقائق قد أصبح (مسدساً) . والطفل لا يخجل من تصوراته وأوهامه بل هو يتلذذ منها ويمعن فيها .

ومن اللعب الإيهامى يتغلب الطفل على كثير من عوامل الردع التى تجابهه فى حياته ، ويستطيع أن ينفس عن كثير من آماله المكبوتة بطريق تعيد الطمأنينة إلى قلبه وتحفظ التوازن بين رغباته وبين العوامل الخارجية . ثم هو يسقط ما امتصه من عناصر السلطة الخارجية على لعبه وأدواته . فالطفل الذى يلعب «لعبة البيت» يضع أمامه بعض الأشياء لتقوم بدور أثاث المنزل ، وبعض الدمى تمثل الأشخاص القاطنين بالمنزل . وقد حدث بعد أن رتب كل شىء أن اتجه الطفل على الفور إلى الدمى (وكان جزء منها يمثل صغار الأطفال) وقال لها : « عيال وحشين » ، ثم رفعها إلى حافة الموقد وأردف « علشان تموتوا » . وقد أثبتت التقريرات المدرسية لهذا الطفل أنه كان يغار من شقيق له ، وأنه كان يقهقه عالياً عند ما يراه يعاقب ويصيح .

ومثل آخر لطفلة عمرها ثلاث سنوات ... «بدأت تعد الطعام

للبنات الصغيرات، ففتحت (الثلاجة) وعملت على وضع شيء فيها ثم وضعت دمية أمام (الثلاجة) وقالت : « ياحبيبتى إننا نترك باب (الثلاجة) مفتوحاً دائماً » ، وقد اتضح أن والدة هذه الطفلة عمدت أخيراً إلى إحكام غلق باب (الثلاجة) بسلك بعدنى بعد أن اكتشفت سطو الطفلة المتكرر عليها وأخذها من محتوياتها . ولذلك فقد فسر قول الطفلة لدميتها على أنه رغبة مكبوتة ترجو تحقيقها فى المنزل [١].

وهذه الأمثلة وغيرها يتبين لنا أن عقل الطفل كعقل الراشد المجنون الذى يقع تحت تأثير مجموعة من الأفكار ربما لا تكون لها صلة بعالم الحقيقة ، إلا أنها قد تتحكم فى مجرى الشعور . ويؤكد ستيفنسون [٢] Stevenson أن هذه الأفكار قد تتحكم فى مجرى شعور الطفل كله بحيث لا يستطيع التفكير فى مشاكل حياته اليومية ، أو العادية إلا عن طريقها . وهذا التشابه بين عقلية الطفل الذى يفنى فى تيار اللعب الإيهامى وبين بعض مظاهر المرض العقلى ، لهو تشابه خطير الشأن . لكن يجب ألا نغالى فى ذلك ، فإنه إذا كان من الصعوبة أن ترجع مريض العقل إلى عالم الواقع فإن الطفل ، كما يقول ستيفنسون ، سرعان ما يرتد قافلا إلى عالم الحقيقة عند أول إحساس له بالألم .

---

(١) Jersild, A.T. : Child Psychology. P. 386-387.

(٢) Stevenson :Child's Play.

وهنالك فرق آخر بين المريض بعقله وبين الذى يلعب لعباً إيهامياً ، فالأول تفسر حالته من الوجهة (البيولوچية) على أنها هروب روح ضعيفة كليلة تعجز عن تحمل ثقل هذا العالم المضطرب العسير الفهم ، فهى بهذا مظهر من مظاهر نقص وقصور الطاقة ، فى حين أن سليم العقل يقوم فيحارب تلك المشاكل ويناهض هذه المسائل التى تقف حائلا أمامه حتى يذللها ويسيطر على الموقف . غير أن عليل العقل يشعر بالعجز عن إيجاد الروابط الملائمة للبيئة ويحاول جاهداً أن يقلل من حدة هذه المشاكل ، وذلك عن طريق تجاهل جزء كبير منها ، فالمجنون إذن شخص فشل فى تحمل المسئولية وفى تكييف نفسه فى البيئة التى يعيش فيها .

فإذا انتقلنا إلى اللعب الإيهامى عند الطفل وجدنا أنه ليس نتيجة نقص فى الطاقة ككليل العقل ، بل على العكس هو تراكم الطاقة نفسها . فالطفل محتاج إلى أن يضاعف ويزيد من خبراته ويوسع من نطاق عقله بالتجارب المتنوعة . فلعبه الإيهامى ظاهرة من ظواهر الإتساع والنمو . ولما كان الطفل بحكم قصوره أضعف من أن يخضع عالم الواقع لإرادته ويحصل على غاياته ومراميه البعيدة بطريقة فعالة أكيدة ، فإنه يلجأ الى سحر اللعب الإيهامى كما فعل (علاء الدين) الذى استخدم مصباحه لتحقيق الوسائل الضرورية وليحقق الكثير من أحلامه وآماله ، بل أكثر من ذلك ، ليشكل

العالم وفق مايريد وحسب مايشتهى[١] .

على أننا يجب أن نحترس ، فليس هذا معناه أن الطفل يفضل ويستسيغ عالم الخيال عن عالم الواقع ، ولكن اللعب الإيهامى مجرد وسيلة (بيولوچية) يحفظ بها التوازن بين رغباته وبين الحقيقة والواقع ، وكلما كبر الطفل ونمت معلوماته زادت سيطرته على العالم المحيط به وقل عنصر اللعب الإيهامى فى الأهمية . ومثل الطفل فى لعبه الإيهامى يكاد يشبه مثل المراهق فى أحلام اليقظة ، فهو يستغرق فيها ويكاد يفنى فيها فناء تاماً ، بل قد يصفق لنفسه إعجاباً ، أو تغرورق عيناه بالدموع اشفاقاً وحناناً ، ولكنه سرعان مايرتطم بصخرة الواقع القاسية العاتية فيفيق إلى نفسه . على أن الفرق بين أحلام اليقظة عند المراهق والبالغ وبين اللعب الإيهامى عند الطفل ، أن الأولى تنحصر فى مسألتين لاتكاد تخرج عنهما وهما : المستقبل والغريزة الجنسية .

والطفولة تكاد تكون الفترة الوحيدة فى مراحل نمو الفرد التى تتمتع جيداً بتحقيق نزعاتها عن طريق اللعب الإيهامى ، وقد عرفنا أنه كلما نما الطفل يجد نفسه مضطراً لأن يلائم بين أفكاره

---

(١) Nunn : Education, its Data and First Principles,

والعالم الخارجى فبدلا من أن تخضع العالم لسلطانها تخضع هى لسلطان هذا العالم . ولكن نزعة اللعب الإيهامى تبقى على الرغم من ذلك وتؤدى وظيفة هامة فى الحصول على الحرية اللازمة لنمو تلقائية الفرد . ولنتصور حالة البالغ من العمر أربع سنوات ونصف وقد هرع إلى والدته يزف اليها بشرى تمكنه من اختراع (دهان) طلاء يطلى به أنابيب المياه وصنابير الاستحمام ، وسيقوم هو بهذه العملية، على أن اختراعه هذا له ميزة عالمية مدهشة، أما هذه الميزة ، ويلوح أنها تعود لصالح الطفل فقط ، فهى أنه لايجف الا بعد اثنتى عشرة سنة ... ومعنى ذلك أن الطفل لا يستحم لمدة اثنتى عشرة سنة!

ويرى علماء التربية اليوم أن الأساس السيكولوجى لحركة الكشف تقوم على مبدأ اللعب الإيهامى ، فإن الأنواع الأساسية لحركة الكشف هى ألعاب إيهامية محضة : لباس الكشافة والرموز السرية وأسماؤها الحيوانية كلها تنتمى إلى عالم لا يوافق حقائق الحياة المتمدينة ، وإلى جانب ذلك نجد فى حركة الكشف علوما نافعة كالجغرافيا والتاريخ والتاريخ الطبيعى ودروس الأخلاق والتربية الوطنية ، بالاضافة إلى الأسس الخلقية القويمة النافعة التى تغذى نفوس الصغار . ولذلك فمن الأوفق جداً أن تلقى عناية بالغة إلى أمور الكشف فتشجع فرق الكشافة والأشبال فى مدارس البنين وجماعات المرشدات والزهرات فى مدارس البنات . بل لعل من

المثل العليا أن تحول الفصول الأولية إلى معسكرات للكشافة وفرق للمرشدات .

الرموز الجنسية فى لعب الطفل :

حلا لبعض المحللين النفسيين أن يلمحوا فى لعب الطفل رموزاً جنسية ، وأن يروا أن الدافع الغريزى الأساسى الذى يدفع الطفل إلى اللعب هو الغريزة الجنسية ، ولكن يلوح أن آراءهم هذه محض وهم وخيال ، فالدافع الأساسى هو رغبة الطفل الملحة فى أن يصير يافعاً أو بمعنى آخر هو يتطلع إلى القوة . فالطفل يشعر بضعفه وبنقصه أمام أخيه الأكبر وأمام والده وأمام سائق الترام وبائع اللبن . وهو لا يطيق أن يرى نفسه ناقصاً ولا يمكنه أن يتعجل نموه ويقفز متخطياً السنوات ويطوى الزمن . والطفل شغوف أبدا بإدراك النجاح وبأن يفعل ما يفعله الكبار . . . وهذه الرغبات لاتجد أمامها من سبيل للظهور إلا بالانفجار على هيئة لعب .

وفى اللعب شكلان من إرادة الطفل وشغفه بالحصول على القوة : الشكل الذى يتألف من تعلم عمل الأشياء ، والشكل الذى يتألف من التخيل . فكما أن الراشد المحروم تستهويه الأحلام وخاصة تلك التى لها دلالات جنسية ، كذلك الطفل يستهويه أن يتخيل فى نفسه ما يدل على القوة ، فقد يقف الساعات الطوال أمام المرآة يستعرض جسمه ويثنى ذراعه متأملا فى عضلاته ، ثم يقيس

عرض صدره، بل قد يمسك بالحجر الكبير ويضرب به صدره مثبتا لمن حوله قوة تحمله وصلابة عضلاته . وقد يشغف جدا بوضع قناع على وجهه أو تغطيته بتلك الورقة الملونة التى تمثل فى ألوانها وفتحاتها وجهاً مرعباً ، ثم يدخل على من فى الدار بذلك القناع ويستشعر باللذة عندما يرى الرعب وقد ارتسم على وجوههم . وقد يسمع الطفل قصة عن جبار فيحب بعد سماعه القصة أن يسمى باسم الجبار، بل إنه قد يقوم بلعب بعض أدوار هذا الجبار ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

فهناك طفل سمع قصة « ذو اللحية الزرقاء The Bluebeard » فأصر على أن يكونه ، واعتبر أن معاقبة ذى اللحية الزرقاء لزوجته على تمردها كان عدلا ، وأصبح يكثر فى لعبه من قطع رءوس السيدات . غير أن الفرويديين (أتباع فرويد) سينبرون قائلين إن عمل الطفل مبعثه جنون القسوة على النساء ، ولكن لاشك فى أن تعليلهم هذا لن يقابل بالرضا إذا علمنا أن نفس الطفل كان يجد لذة فى أن يكون عملاقاً يأكل الاولاد الصغار [١] .

إذن فليس الجنس هو الأساس ، بل هى القوة ، على أن القوة ليست هى كل شىء .

نمو اللعب وتطوره :

عرفنا أن لعب الطفل الصغير يختلف عن لعب الطفل فى

(١) Russell, B. : On Education

العاشرة فلكل فترة أنواع خاصة من اللعب تتناسب مع نموه الجسمى والعقلى والاجتماعى ، ويميل علماء النفس إلى تقسيم فترة الطفولة من حيث تمييز أشكال اللعب إلى ثلاثة أقسام :

(ا) القسم الأول ويشمل ألعاب الطفل من الميلاد حتى السنة الثالثة تقريباً ، وتكاد تكون الصفة الغالبة لألعاب الطفل فى هذه المرحلة متصلة بالتأثيرات الحسية والخبرات الآلية ، وتميز أيضاً بأنها مرحلة لعب فردى . فالطفل فى هذه المرحلة يميل إلى التجريب ويهتم بالتكرار والنشاط حباً فى التكرار والنشاط . فلا يمل مطلقاً من نقل كتل خشبية من مكان لآخر ثم إعادتها إلى مكانها الأول ، وقد يستمر فى هذا العمل عدة ساعات ، الأمر الذى لا يجد فيه الكبير أى شوق أو تسلية .

وإذا تتبعنا نمو اللعب فى هذه المرحلة فسنجد أن حركات الوليد الأولى تكون عشوائية ويستجيب للضوء والأصوات والأشخاص . ثم يعمد بعد ذلك إلى تحريك قدميه كأنما يقذف بهما شيئا ويلعب بأصابعه وبأجزاء أخرى من جسمه . وفيما بين الشهر الرابع والثامن يلعب بالأصوات ويكررها مرات متعددة بتلذذ كبير . وينمو لعبه نمواً ملحوظا فى الفترة السابقة لمشيه مباشرة ويساعده على ذلك مقدرته على مسك الأشياء واستخدام يديه . ونلاحظ هنا أن الطفل يفضل الأشياء الصغيرة فيمسكها

بين أصابعه ويضعها توآ فى فمه ، وقد عرفنا أن فمه هو مركز الحياة العقلية عنده . وبعد أن يمشى الطفل نراه ينتقل من مكان لآخر وتزيد أوجه نشاط لعبه. ويشغف الطفل بالحل والتركيب ، وتلعب غريزة حب الاستطلاع دوراً كبيراً فى توجيه سلوكه ولعبه . على أنه من الملاحظ أنه يحب اللعب بجوار أطفال آخرين ولكن ليس معهم .

(ب) القسم الثانى ويشمل الفترة من السنة الرابعة إلى الثامنة : وتتميز باللعب الإجتماعى والتعاونى ، ويهتم الطفل لا بالنشاط فى حد ذاته بل فى الغاية من هذا النشاط . ولا يميل الأطفال إلى تكرار عمل الشىء بل يصبون إلى النهاية ، فعند ما يلعب الطفل « لعبة البيت » لا يكتفى بغسل الملابس ثم يكرر هذه العملية ، بل يضع الملابس فى مكان مشمس حتى تجف ثم يأخذها وقد (يكويها) ثم يضعها فى المكان المخصص لها . وهو فى هذا يكرر سلوكاً كان قد رآه ينفذ فى المنزل عدة مرات . ويميل الأولاد إلى الألعاب التى من شأنها أن تنمى قوة العضلات وتضفى على الأجسام منظراً رياضياً جميلا . كما أنهم يميلون إلى ألعاب الاختفاء والبحث والمطاردة والصيد والتسلق .

(ح) القسم الثالث ويشمل الفـــترة من الثامنة حتى حوالى الثالثة عشرة : فى هذه المرحلة تظهر الفروق فى الألعاب بين

البنين والبنات . والصفة المميزة للألعاب فى هذه المرحلة هى كثرة النشاط واتساع مداه مع الجلبة والضوضاء . وقد لوحظ أن اهتمام البنات بالدمى يبلغ ذروته فى سن التاسعة . وتظهر المنافسة جلية واضحة بين الأطفال فيميل كل منهم إلى التفوق على أقرانه حتى يكون محطاً لأنظار الغير وحتى يتبوأ مركزا ممتاز فى المجتمع . ويميل الأطفال إلى أنواع من الرياضة الجميلة ككرة القدم وكرة السلة . وفى نهاية هذه المرحلة نجد التميز واضحا فى ألعاب كل جنس ، بل إن الولد يبحث له عن صديق (ولد) وتبحث البنت عن صديقة تأتمنها على أسرارها وتجعلها محط ثقتها ، وطبيعى أن نجد اهتمام الذكور بأنواع من الأعمال والألعاب تتناسب مع جنسهم ومع مستقبلهم وكذلك الحال مع البنات فإنهن يملن إلى الحياكة واشغال الإبرة والفنون الجميلة كالرسم والموسيقى .

مواد اللعب :

من المجدى أن تكون اللعب التى يقع اختيارنا عليها للأطفال ملائمة لميولهم ومتمشية مع رغباتهم فى مرحلة نموهم الخاصة .

فى الشهور الأخيرة من العام الأول يميل الطفل إلى تعرف عدد أكبر من الأشياء المحيطة به سواء أكانت لعبا أو أماكن أو شيء ما ، ونشاهد فى نفس الوقت نمو نزعة الاستطلاع عن الأشياء والأشخاص بروح اللعب ، ويزداد سروره كلما حاول

القيام بعدد كبير من مختلف أنواع النشاط والأعمال ، كهز (الشخشيخة) ومراقبة الأم وهى تروح وتجىء ، والتحديق فى المصباح أو فى اللهب و (الطرطشة) فى ماء الاستحمام وجذب القلادة التى فى عنق الأم وتحسس وجه حامله وقد يميل إلى العبث بثدى أمه .

فإذا ماخيم ليل العام الأول وانبلج فجر العام الثانى وجدنا تطورا طفيفا فى مواد لعب الطفل ، فهو مايزال فى غير حاجة إلى أشياء مادية يلعب بها، فإن أطرافه وفمه تهيىء له تسلية كبيرة تغنيه عن اللعب ، فيمضى وقتاً طويلا من يقظته فى اللعلعة والبأبأة ويخرج من الأصوات ألواناً شتى ، وقد بينت أنه يولع بالتمرين على الشىء ويتعلق بأصبع أحد محبيه الكبار . وتقترح سوزان أيزاكس[1] أن تقتنى الأم حظيرة مسيجة وهى عبارة عن سور خشبى متنقل يمكن ثنيه ونصبه فى أى مكان مسطح . ويجب أن يكون هذا السياج قوى الصنع خفيفا بحيث يسهل نقله من غرفة إلى أخرى ، فإذا كانت الشمس مشرقة فالأفضل أن ينقل السياج إلى الحديقة وتغرس فى داخله على الأرض سجادة ناعمة ، ويترك الطفل عليها آمناً مطمئناً داخل السياج يتمدد ويرفس ويزحف ويحاول المشى كيفما شاء له الهوى .

---

(١) سوازن أيزاكس : الحضانة (ترجمة سميه فهمى)

ويميل الطفل فى هـذه السن أيضا إلى الصناديق على اختلاف أنواعها . ويستحسن إذا زود الطفل بلعب خشبية أو صفيحية ألا تكون ذات زوايا وحافات حادة ، كما يجب أن يزود ببضع مكعبات خشبية مختلفة الأحجام أو عصا ملساء أو ماشابه ذلك كى يضعها فى الصناديق ويخرجها أو يحدث بها أصواتا يلذ لسماعها . ولا بأس من ان نزود الطفل بقدر من الرمل الفضى النظيف أو رمل البحر الذهبى ، وكرة مطاطية زاهية الألوان أو دمية من المطاط تحدث صريرا إذا لكمها أو ضغط عليها .

ويجد القارىء فى كتب[1] سوزان أيزاكس سردا وافيا للعب الأطفال فى مختلف الأعمار .

اللعب والتربية .

بدأت أنظار المربين فى العصور الحديثة تتجه إلى الطفل وترى أنه المركز الذى يجب أن تدور حوله أبحاث التربية ونظرياتها وطرائقها بعد أن كان الإهتمام كله موجها إلى المادة ، وكانت نقطة التحول على يد جان جاك روسو الفيلسوف الفرنسى الساخر المتهكم الذى نقد نظم التربية فى عصره نقدا لاذعاً قاسياً ، حتى أنه صرح فى جرأة بالغة موجها عبارته إلى المربين فى عصره : « سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى طريق النجاح .. نحن لا نعلم عن الطفولة

(١) وخاصة كتاب الحضانة (ترجمة سميه فهمى)

شيئا وكلما مضينا فى طريقنا ونحن على جهل بطبائع الأطفال كلما ازددنا تورطا فى الأمر وبعداً عن الطريق الصحيح » . وكانت أقوال روسو مشعل الحرية للطفولة والمفتاح السحرى الذى عمل على تحريرها من قيودها . ومن ثم عمد المربون إلى تربية الأطفال تربية تتمشى مع طبائعهم وتساير ميولهم وغرائزهم ، فطعموا نظمهم التربيبية باللعب ، بل جعلوه عمادها وخاصة فى الأدوار الأولى ؛ ومن هؤلاء المربين فردريك وهلم فروبل Froebel منشىء مدارس رياض الأطفال Kindergarten سنة ١٨٤٠ . والتعليم فيها على صورة ألعاب يميل إليها الأطفال . وقد زود الروضة بهدايا تساعد الأطفال على تدريب حواسهم وتقوية ملاحظتهم ، وقد رتبت هذه الهدايا بحيث ينتقل الطفل فى استعمالها من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب . فالهدية الأولى مثلا تتركب من كرات من الصوف ذات ألوان مختلفة يلعب بها الطفل فيتعلم أثناء ذلك تمييز الألوان وبعض مميزات الأجسام كالثقل والخفة والنعومة والخشونة . والهدية الثانية عبارة عن ثلاث قطع خشبية على شكل الكرة والأسطوانة والمكعب . وفى أثناء اللعب يتعلم الطفل الفرق بين أشكالها ويطالب بذكر أشياء تشبه أشكالها . وهناك هدايا تسمى بصناديق البناء وتشمل قطعا خشبية صغيرة يأخذها الطفل ليعد القطع ويرتبها ويبنى منها أشكالا مختلفة يوحى بها إليه خياله : فطفل

يبنى بيتاً وآخر يشيد قلعة وثالث يقيم حاجزاً .

وإلى جانب الهدايا يلعب الأطفـــال فى حديقة حيث يرون نباتات يمكن زرعها وطيور وحيوانات وأشجار وزهور . وفى رياض فروبل يرقص الأطفال على أنغام الموسيقى وينشدون الأناشيد ثم تراهم وقد أصبحوا تجاراً لهم حوانيتهم الصغيرة يبيعون ويشترون مستعملين الحصى أو أقراص الورق بدل النقود.

ومن رواد التربية الحديثة الدكتوره ماريا منتسورى الإيطالية Dr. Maria Montessori ، ومنازل الأطفال Casa De Bambini التى انشأتها انتشرت فى جميع أنحاء العـالم . وأهم مايميز طريقة منتسـورى هى أجهزتها التعليمية التى بواسطتها يتعلم الطفل ماهو جدير به أن يتعلمه فى فترة حضانته وطفولته ، كاستخدام وحسن استغلال مقدرته الحركية والتمييز الحسى ومبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وطريقتها فى ذلك أن يترك الأطفال لأنفسهم تحت إرشاد مرشدتهم .

هذا ، ولو أن منتسورى لاتعترف مطلقا بقيمة اللعب الإيهامى وما يصحبه من قصص خرافية بعيدة عن الواقع والحقيقة إلا أن الروح العـامة لمبادئها ونظمها التربيبية مبنية على الاعـتراف بأن اللعب وسيلة هامة جدا فى تعليم الصغار فهى تعطيهم الحرية ، ولـكن تحت إشراف المرشدة ، وهى لا ترى أن الأطفال كالدمى والعرائس

بل يختلفون عنها ففيهم حياة ولهم قدرة على العمل والحركة والقيام بالكثير من الأعمال إذا ما منحوا مايحتاجون إليه من الحرية والاستقلال .

ثم ها هى طريقة المشروع التى يحيا الطفل فيها حياة طبيعية ، ولا بد أن يكون المشروع نابعاً من أعماق نفوس الأطفال وأن تكون الرغبة فى المشروع طبيعية كما يكون موقف المدرس سلبياً. بل سيطلب من الأطفال القيام بهذه المشروعات من تلقاء أنفسهم وفى أثناء تنفيذها يواجهون كثيرا من المشاكل التى يتطلب حلها التفكير والتحايل وبذل الجهد ، فلا يلقنهم المعلم الحل بل يتركهم يحلونها بالطرق الطبيعية . ويعتمد الأطفال على أنفسهم فى البحث عن المعلومات وابتكار الوسائل المؤدية إلى تحقيق الغرض الذى يهدفون إليه . كل هذا فى صورة خارجها لعب وباطنها جد ؛ أو بمعنى آخر فإن نظم التربية الحديثة تعمد إلى بث روح اللعب فى الدروس فتضمن بذلك عنصرى الذاتية والتلقائية .

المراجع

١ . سوزان ايزاكس : الحضانة (ترجمة سميه فهمى)

٢ . صالح عبد العزيز وعبد العزيز عبدالمجيد : التربية وطرق التدريس .

٣ . على عبدالواحد وافى : اللعب والعمل .

4. Baker : The Diagnosis and Treatment of Behavior Problem Children.
5. Bowen and Mitchel. : The Theory of Organised Play.
6. Buhler, Ch. : From Birth to Maturity.
7. Dewey, J. : Democracy and Education.
8. Fordham. : Life of Childhood.
9. Jersild. : Child Psychology.
10. Morgan. : Child Psychology.
11. Murray. : Child under Eight.
12. Nagge, J. W. : Psychology of the Child.
13. Nunn. : Education, its Data and First Principles.
14. The Psychologist (Feb. 1949).
15. Rogers, J E. : The Child and Play.
16. Russell, B. : On Education.
17. Steiner. : L'Education de l'Enfant.
18. Stevenson : Child's Play.
19. Stoddard, G.D. and Wellman, B. L. : Child Psychology.
20. Yale University Clinic of Child Development : The First Five Years of Life.